الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٥ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — « لاهو — تسيه »

فلسفة العملية

يغالي بعض الباحثين حين يصف « لاهو — تسيه » بأنه ميتافيزيكي فحسب ولا شأن له بالفلسفة العملية أو الأخلاق كما يصف « كونفيشيوس » بأنه عملي لا يأبه للميتافيزيكا ، وإنما الحقيقة أن لكل منهما رأياً قيما في الأخلاق ، وهذا طبيعي ، لأنهما اغترفا من منبع واحد ، وهو فلسفة عصر ماقبل التاريخ ، ولكن الخلاف قد دب بينهما حول الوسيلة التي توصل إلى الخير والكمال ، فبينما كان « لاهو — تسيه » يرى أنها التنسك واحتقار المادة وإهمال الحياة العملية وعدم الإكثار من القوانين ، ويرى أن عصر الأباطرة الذين شرعوا القوانين واللوائح كان عصر تدهور وانحلال تلا العصر الذهبي الذي كان الملوك فيه لا يعرفون القوانين ولا يهتمون بالعقاب ، كان « كونفيشيوس » على العكس من ذلك يرى أن العصر الذهبي هو عصر أولئك الملوك الذين قننوا القوانين ووضعوا القواعد التشريعية ، ولهذا كان يتخذهم نماذج يسير على منوالهم . وإذن ، فالاثنان أخلاقيان يريدان الكمال والسعادة للأمة ، وإنما يختلفان في الوسيلة فحسب ، وقد شرح « لاهو — تسيه » رأيه في الأخلاق العملية فقال مانصه : « بقدر ما يكثر الملك من القوانين واللوائح ، يهوى الشعب في البأساء ؛ وبقدر مايكون لدى الشعب من وسائل للغنى والرفهية ، تكون حالة الأسرة والوطن رديئة ؛ وبقدر ما تتضاعف الأوامر الشديدة يكون عدد اللصوص والمجرمين في نمو وتضاعف [1] » وعلى الجملة ، كان المثل الأعلى من الملوك في رأيه هو الملك الذي تجهل رعيته الوجود جهلاً تاما

(١) راجع « تاو — تي — كينج » فصل ٥٧

وعنده أن المعرفة الظاهرية رديئة ، لأنها لا توصل إلا إلى حقائق نسبية ، ومن حيث إن الغاية المقصودة هي الحقيقة المطلقة في ذاتها ، فينبغي ألا ننشغل إلا بما يوصل إلى هذه الحقيقة ، ولا يوصل إليها إلا الاتحاد التام ، والامتزاج الكامل بـ « تاو » ولا يتيسر هذا الامتزاج بالتربية ولا بالتثقيف الظاهري ، كلا ، فهاتان الوسيلتان معدومتا الفائدة ، وإنما هو يتحقق بالعزلة التامة ولذلك فالقديسون الذين يريدون الاتصال بـ « تاو » واتباع الصراط السوي ، يجب عليهم أن ينبذوا كل ثقافة وينسحبوا إلى مكان مقفر ويعيشوا كما كان أهل العصور الغابرة يعيشون ممتزجين بالقوة غير المرئية ، وهو يصف هذه الحالة فيقول : يكون خائفاً كمن يخترق سيلا في الشتاء ، متردداً كمن يخشى أن يراه جيرانه ، جدياً كأجنبي في محضر ضائفه ، بارداً كالثلج حين يتحلل ، جافا كالخشب الخام ، فارغا كالوادي [1] » وفي العموم أن المثل الأعلى للخيرية في رأي هذا الفيلسوف هو الطفل الذي يولد على الفطرة بريئا نقيا ، وأن الوسائل التي توصل إلى الكمال هي : الحياء والضعف والبساطة و « اللاووي » ومعناه العزلة والتخلي عن كل عمل ، وسلوك الصراط السوي

غير أن هذا كله ليس معناه أن « لاهو — تسيه » قد أمر باهمال المسئولية الاجتماعية ، كلا ، بل هو قد حض بالعكس على العناية بالجمعية البشرية وأعلن أن الأنانية وإهمال خدمة العمران من الرذائل الكبرى وقد سبقت تعاليمه الآمرة بالغيرية والمحبة العامة تعاليم المسيحية بنحو ستة قرون ، ولم يكن تبشير « لاهو — تسيه » بحب الغير ناشئاً عن عاطفة ، وإنما كان منبثقاً من منبع الواجب والالتزام اللذين كانا يملكان عليه تفكيره وحواسه

وعنده أن القديس هو الذي يحكم الشعب ويسوسه ، ولكن لا بالقوة والقسوة ، بل بالمثل الأعلى الذي يقدمه مثبتاً به أنه فوق الطبيعة ، وأنه لا يحكم شعبه بالقوانين والعقوبات ، ولا يخضع الشعوب الأخرى بالحروب ، وإنما يعامل الجميع ببساطة الطفل وطهارته ؛ هذا هو وحده الأمير الذي تنتظره الصين وتعول عليه في محنتها

أحسب أنك ترى بعد كل هذا معي ومع الأستاذ « زانكير » أن « لاهو — تسيه » كان فيلسوفاً لا تنزل به عبقريته إلى ما هو أدنى من صفوف أفلاطون والقديس « أوجوستان » و « كانت » وأنه إذا كان قد أخفق أو ضل السبيل في بعض

(١) انظر الكتاب المذكور فصل ١٥

أفكاره ، فان التبعة فى ذلك واقعة على التدهور الذي كان ميزة عصره وخاصيته ، وإذا لم يكن مذهبه قد أزهر فيما بعد كما أزهرت مذاهب الإغريق ، فان لذلك سببين : الأول أنه لم ينشىء فى حياته مدرسة لنشر فلسفته ، والسبب الثانى أن الطبيعة الصينية لم تكن تتلاءم مع تعاليمه المثالية فى التنسك والسلبية ، ولهذا لم تكد فلسفته تعرف فى أوروبا حتى أزهرت فى البيئات الاشراقية إزهاراً لم تعرف له نظيراً فى منبتها الأصلى

« التاوايسم » أو « لاهو — تسيه »

بعد أن توفى « لاهو — تسيه » نشأ من ميتافيزيكيته مذهبان : « التاوايسم » الفلسفي و « التاوايسم الديني » ، وكلاهما نشأ من « تاو » وهو عنوان كتابه الذى أشرنا إليه . فأما « التاوايسم » الفلسفى فقد انقسم فيه تلاميذ الحكيم إلى عدة أقسام ، فبعضهم تخصص فى دراسة المعرفة وما يمكن أن يحصله الإنسان منها ، وهل هذا التحصيل مفيد أو غير مفيد . والبعض الآخر قصر بحثه على دراسة الظواهر الطبيعية وما تحتويه من أسرار . ولكن لما كان الجميع متأثرين برأي أستاذهم الذى أسلفناه ، وهو القائل بأن « التاو » غير قابل للدركية البشرية ، فقد كان من الطبيعي أن يعلنوا أن العقل الانسانى قاصر عن إدراك « المطلق » وبالتالي هو قاصر عن إدراك بعض الحقائق الموجودة

هناك فريق ثالث من تلاميذ هذا الحكيم لم يئسوا من إدراك العقل البشرى لكنه « التاو » لم يجدوا بداً من أن يعلنوا أن مالم يُدْرَك بالعقل ، يدرك بوساطة السحر ؛ وهنا نشأ مذهب « التاو إيسم » الديني وهو مزيج من قواعد سحرية ، وتعاليم تصوفية . ولما كان هذا القسم الأخير لا يعنينا كثيراً فى دراستنا الحاضرة فقد آثرنا أن نقصر إشارتنا هنا على « التاوايسم » الفلسفي

من أشهر أولئك التلاميذ الذين أحيوا مذهب أستاذهم بعد موته وواصلوا سلسلة بحوثه هو « بين — مى » الذى سار على ضوء تعاليم أستاذه فكتب بحوثاً قيمة حول نظرية المعرفة ونقد العقل البشرى وأبان قصوره عن إدراك « المطلق » ومن مشاهير هؤلاء التلاميذ أيضاً « لين — تسيه » الذى كان من أعلام عصره الأجلاء والذي كتب بحوثاً هامة حول كثير من المشاكل الفلسفية ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن ما عثر عليه من مؤلفاته وجد مشوهاً متناقضاً مما يدل على أن بعض الأيدى قد عبثت به وقد عاش هذا الحكيم فى القرن الخامس قبل المسيح

هناك حكيم آخر من أولئك التلاميذ ، وهو : « تشوانج — تسيه » الذى عاش في النصف الثانى من القرن الرابع قبل المسيح وعاصر « مانسيوس » الذى سنتناوله بعد أستاذه « كونفيشيوس »

يروى لنا المؤرخون أن هذا الحكيم شغل فى مطلع شبابه مركزاً سياسياً هاماً ، ولكنه لم يكد ينضج حتى عاف السياسة واعتزل الخدمة وقصر حياته على البحث والتأليف ، وفى أثناء ذلك بلغت كفايته مسمع الملك ، فبعث إليه رسوله بهدية عظيمة وطلب إليه أن يقبل منصب وزير فى الدولة ، فلما عرض عليه الرسول ذلك أجابه بقوله : إن هذا المبلغ عظيم إذا قيس إلى حالتي وإن منصب الوزير منصب محسود ، ولكن ألم تر فى حياتك أن الثور الذى خصص للذبح فى أحد المعابد ثم أخذوا يطعمونه حتى سمن ثم أحاطوا جسمه قبل ذهابه إلى المذبح بالحلى والمجوهرات ليكون منظره جميلا ، ألم تر أن هذا الثور ساعة دخوله إلى المعبد يتمنى أن لو كان خنزيراً صغيراً حتى يعفى من الذبح ، ولكن هذا التمني لا يجديه فتيلا ؟ إذهب إذن من هنا ولا تهني بحضرك فأنا أفضل أن أنام في قناة حمئة مليئة بالأوحال على أن أذعن لتقاليد البلاط والتزاماته

ويحدثوننا كذلك أن هذا الافراط فى التمسك بالكرامة والمحافظة على حرية الرأى قد جر عليه حياة مليئة بالصعوبات والأشواك ، ولكنها مليئة كذلك بالاحترام والاجلال إلى حد أن روت لنا إحدى الأساطير أن أخرى زوجاته كانت من الأسرة المالكة

مؤلفاته ومذهبه

روى التاريخ أن هذا الحكيم قد كتب ثلاثة وثلاثين كتاباً وأن هذه الكتب كلها قد جمعت تحت عنوان واحد وهو : « المناهج الحقيقية لزهور بلاد الجنوب » ولكن المدققين من المؤرخين يرون أنه لم يثبت له شخصياً إلا نحو عشرة كتب كتبها بخطه ؛ أما الباقى فهو مجموعة مكونة من آرائه وآثاره مع شروح وتعاليق تلاميذه

أما مذهبه فيمكن أن يدرس من ثلاث نواح : الناحية الأولى النظرية ؛ وفيها لم يكن يختلف عن أستاذه « لاهو — تسيه » فى شىء ، إذ هو يرى معه أن العقلية البشرية قاصرة عن إدراك « التاو » بواسطة المعرفة الثقافية التى لا تتناول إلا الحقائق النسبية

أما « المطلق » فهو لا يعرف إلا عن طريق الانفعال النفسانى ، وإن كل محاولة لمعرفة هذا « المطلق » عن طريق التفكير المنطق آيلة ضرورة إلى الفشل المحقق بعد أن تقود صاحبها إلى صحراء قاحلة من السفسطة والضلال ، لأن المنطق لا يصل إلى نتائجه إلا بالتحليل ؛ ولو أصبح تحليل « المطلق » ممكناً ، لخرج عن كونه « مطلقا »

أما الناحية العلمية من مذهبه : فهى وإن كانت مؤسسة على الأصول الجوهرية من آراء « لاهو — تسيه » إلا أنها تطورت عن المذهب القديم كثيراً . ولإيضاح هذه الناحية العملية أجرى فيلسوفنا الشاعر محاورة بين روح السحاب وبين الضباب ، ثم بسط مذهبه على لسان الضباب فقال : « صير قلبك حازماً وتجنب كل تدخل فى أى شىء ؛ أى الزم اللا « وو — وى » أو « اللاعمل » ودع الأشياء تتطور حسب ناموسها الطبيعى ، ولا تأبه لجسمك وأغلق عينيك وأذنيك ، وانس كل ما يربطك بالعالم الخارجى ، وامتزج بالمبدأ الأول . فك وثاق قلبك ، ومد روحك ؛ وعد إلى عالم « اللاإدراك » فإذا تحقق ذلك رجع كل كائن إلى الصدر المبدئى العام ، وعاد كل شىء إلى منشئه دون علم منه بهذه العودة واجتمع كل موجود ، وتوحد الجميع كما كانت الحال فى البدء ، ولم يصبح كل كائن مريداً ولا قادراً عن البعد عن هذه الوحدة المطلقة الأبدية »

ويعلق أحد المستصينين على هذا بقوله : ينبغى ألا يتسرب إلى الأذهان أن تنسك « شوانج — تسيه » كان نوعاً من الحرمان والرهبنة على نحو ماهو موجود فى الديانات الهندية والمسيحية ، كلا ، فالحكيم فى رأيه لا يستحق هذا الاسم إلا إذا ترفع عن جميع الآلام وتخلص منها وأخضعها لإرادته . أما متنسكو تلك الديانات فهم تحت الآلام لا فوقها ، وهذا فرق عظيم يجب أن يعنى به الباحثون

بهذا الفيلسوف تنتهى أرقى الحركات العقلية حول « التاو إيسم » الفلسفى بعد أن أزهرت إبان القرنين : الخامس والرابع قبل المسيح إزهاراً ساعد عليه تعطش الشعب إلى السعادة والهدوء فى وسط معمعان هذا التدهور السياسى والعمرانى الذى أشرنا إليه آنفا

هذا ، وسندرس ما عرض له « التاو إيسم » من تطورات فى العصور التاريخية التى تلت هذا العصر ، ولكن بعد أن ننتهى من دراسة أعلام المذهب الآخر وهم : « كونفيشيوس » وأشياعه

(يتبع)

محمد غلاب

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٩ —

« قطعتنى زحمة العمل أسبوعين عن مواصلة الكتابة وقامت بينى وبين الواجب ؛ ثم ألح علىّ المرض أسبوعين يغدو ويروح بين الليل والنهار ، فلا أنا أم أن أشرع القلم لأستأنف حديثى حتى يقطعنى الاعياء ويقعد بى العجز . فما كان من صمتى فى الأسابيع الأربعة الماضية فهو من ذاك ، ولعله عذر يبلغ بى عند الأصدقاء الذين ظنوا بى ماظنوا لهذا الصمت الطويل فأوسعونى فى رسائلهم عتباً وملامة ، فكان عتابهم آية من آيات الود الصافى وحسن الاخاء »

الرافعى فى سنوات الحرب

كان الرافعى — رحمه الله — شاعر النفس ، مرهف الحس ، رقيق القلب ، قوى العاطفة : يرى المنظر الأليم فتنفعل به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه ؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلمح فى عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء . ولقد كان الرافعى يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيراً من المآسى الفاجعة يسأله أصحابها الرأى أو المعونة ، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاماً مكتوباً ، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل

ولقد وقعت الحرب واستعرت نارها فى الميادين البعيدة لا يبلغ إلينا منها نار ولا دخان ولا يراق دم ، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء ، فما كان ضحاياها فى مصر بالجوع والمتربة أقلّ عديداً من ضحاياها هناك فى الميدان ... كيف كان يعيش العامل المسكين فى تلك الأيام ؟ رباه ! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى — وأنا غلام بعد — أستدعى النجار لعمل عندنا فوجدته جالساً فى أهله يأكلون : كانوا ستة قد تحلقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء ، تتسابق